الفصل

10

الإرهـاق

أصبح فرويد نجماً وبخاصة في أميركا. ففي عام 1924، عرضت عليه جريدة شيكاغو تربيون مبلغ 25,000 دولار لكي يحلل شخصيتي نيثان ليوبولد Nathan Leopold وريتشارد لوب Richard Loeb اللذين شرعا وهما طالبان جامعيان في ارتكاب «الجريمة التامة» وخطفا ثم قتلا صبياً يبلغ من العمر 15 عاماً في شيكاغو. وفي نفس العام، عرض المنتج السينمائي في هوليوود ساموبل غولدوين Samuel Goldwyn على فرويد مبلغاً قدره 100,000 دولار ليستشيره في قصة حب ستعرض على الشاشة الذهبية، واصفاً فرويد «أعظم اختصاصي حب في العالم» وقد رفض فرويد كلا العرضين.

ازداد بال فرويد انشغالاً بكيفية تطبيق التحليل النفسي

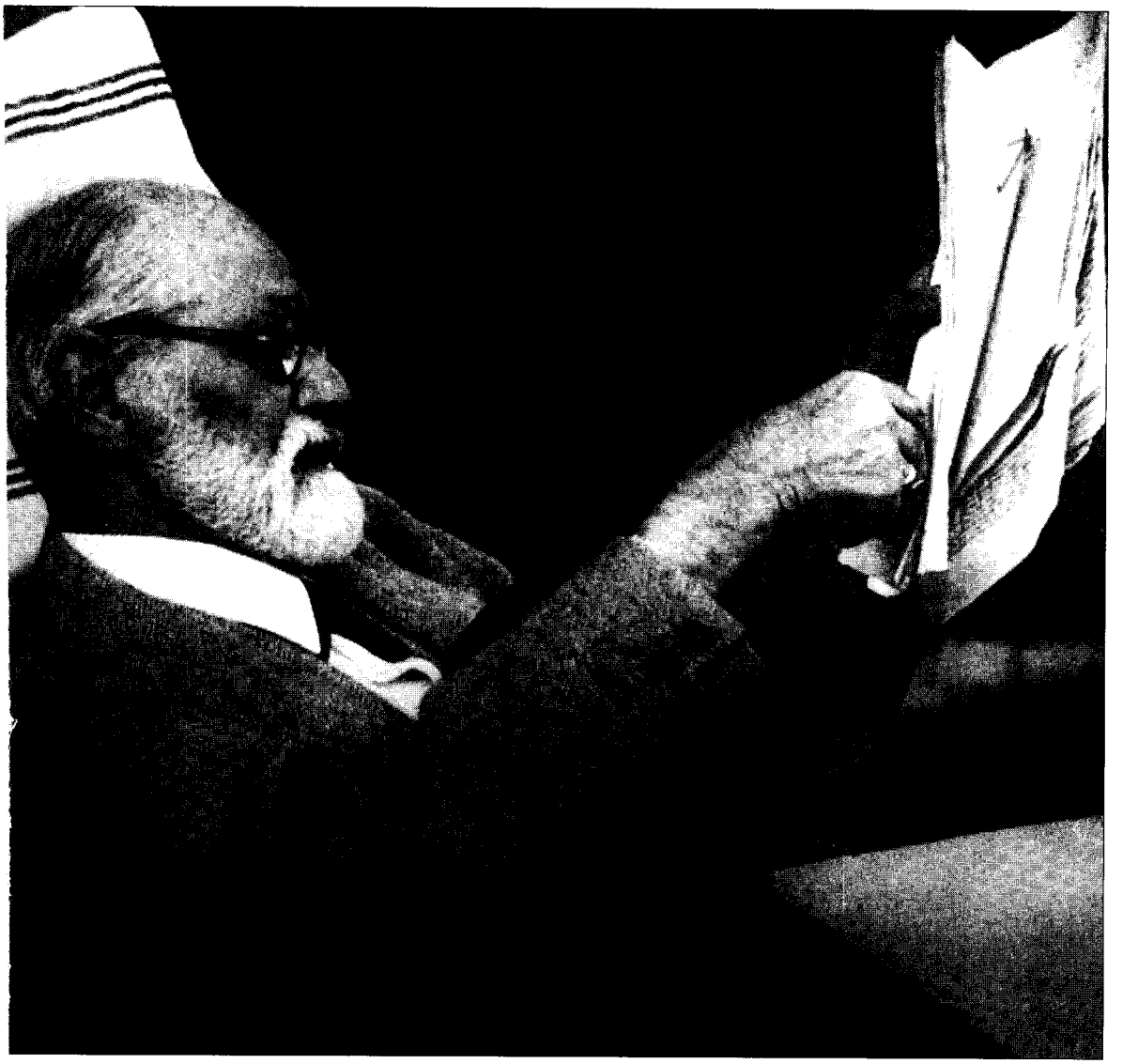

فرويد مسترخياً عام 1932 في منزل ريفي خارج ڤيينا تمتلكه ابنته أنَّا. وقبل ذلك كان يعاني من ألم مبرح، ومن فك اصطناعي حصل عليه بعد عمل جراحي لإزالة ورم في فكه.

على المجتمع وكما كتب في دراسة (السيرة الذاتية) في عام 1925، «لقد أدركت بشكل في غاية الوضوح أن أحداث التاريخ البشري والتفاعل بين طبيعة الإنسان والتطور الثقافي وترسبات الخبرة البدائية (أكبر مثال بارز على ذلك هو الدين) ليسوا أكثر من انعكاس الصراعات الديناميكية بين الأنا، والهو، والأنا الأعلى، إنها دراسات التحليل النفسي في الفرد - هي تماماً نفس العمليات مكررة على نطاق أوسع».

في عام 1927، نشر فرويد كتابه (مستقبل الوهم)، وهو محاولة للتقصي عن أصل الدين.

استهل فرويد الكتاب بمناقشة العلاقة بين المجتمع والفرد. أما الثقافة فهي، وفقاً إلى فرويد، موجودة لكي «تتحكم بقوى الطبيعة» ولكي «تنظم علاقة الإنسان بالإنسان». إذ يتوجب على الأفراد أن يكظموا رغباتهم في سبيل المجتمع. ومع ذلك يقف البشر عاجزين أمام الفياضانات الطبيعية والزلازل والأوبئة. رأى فرويد أن علاقة البشر مع الطبيعة شبيهة بعلاقة الطفل مع أبويه. إذ يعيش الأطفال تحت رحمة آبائهم الأقوياء الذين يفترض منهم حماية أطفالهم. وحينما يكبر الأطفال يحولون صلتهم مع آبائهم إلى صلة مع الله لكي يرضوا نفس الحاجات الطفولية التي كان يلبيها الآباء حينما كان الأطفال في المرحلة المبكرة يؤمنون بقدرة آبائهم. فالدين كما كان يراه فرويد بإيجاز هو وهم يعبر عن الرغبة في الحصول على حماية أبوية سرمدية.

زعم فرويد أن الدين لم يجعل الإنسان التقي سعيداً أو لم يساعد الناس على التكيف مع الحضارة. إذ صرح بأن «عدداً هائلاً من الناس غير راضين عن الحضارة وليسوا سعداء بها ويشعرون كما لو أنها قيد ينبغي إزاحته». وفي المقابل كتب فرويد «تشكل الروح العلمية موقفاً معيناً تجاه القضايا الدنيوية... فكلما زاد عدد الرجال الذيت تفتح أمامهم كنوز المعرفة كلما زاد عدد الذين يقعون خارج نطاق الاعتقاد الديني».

مرة أخرى يلفت فرويد الانتباه إليه في الولايات المتحدة محفزاً على ظهور عناوين مقالات من مثل «الدين يدين مزاعم فرويد» في صحيفة نيويورك تايمز في شهر كانون الأول عام 1927. شجب رجال الدين كتاب فرويد وكتب أوسكار فيستر القس البروتستانتي وصديق فرويد الشخصي، رداً مهذباً عنوانه «وهم المستقبل». كما شجب المعادون للسامية فرويد لمحاولته القضاء على الديانة المسيحية. واتهم كل واحد فرويد لمحاولته تقويض الأخلاق العامة، مبتدئاً بنظرياته عن الجنس والآن من خلال إنكار الله.

في هذه الأثناء، أخذ فك فرويد الاصطناعي بالتسبب له بالآلام المبرحة. فكان يجد في معظم الأحيان صعوبة في التكلم أو في تناول الطعام وغالباً ما كان يعيش مع الألم. تذكرت إحدى تلاميذ فرويد الشباب، ماريس تشويسي Maryse Choisy فرويد يتحدث عن مستقبل

الوهم، قائلاً «هذا هو أسوأ كتاب لي! . . . إنه ليس كتاباً من كتب فرويد. . . إنه كتاب رجل يعاني من الشيخوخة! زد على ذلك أن فرويد هو ميت الآن، وصدقيني، إن فرويد الحقيقي هو رجل عظيم. وأنا بالتحديد متأسف من أجلك لأنك لم تعرفيه جيداً».

بعد إصابته بمرض السرطان توقف فرويد عن كتابة تاريخ الحالة وركز جُلَّ اهتمامه فقط على مسائل فلسفية كبيرة في التحليل النفسي والثقافة. كما خفض حجم الحالات التي كان يعالجها بشكل حاد هاجراً العلاقات الإنسانية ومنسحباً إلى الكتابة المدرسية ذات الطابع غير الشخصي. لقد توقف تقريباً عن معالجة الأفراد، إلا باعتبارهم رموزاً مجردة.

وعلى الرغم من أن جسم فرويد أصبح أسير مرض السرطان فقد باشر العمل على كتاب جديد هو (الحضارة ومنغصاتها) الذي نشره في عام 1930. وعلى نحو مشابه لكتاب (مستقبل الوهم) يتحدث كتاب الحضارة عن التفاعل القائم بين الفرد والدين والثقافة. استهل فرويد الكتاب بافتراض أن البشر ليسوا سعداء. فقد كتب، إننا إن لم نكن مهددين بالعواصف والزلازل والطاعون فإننا نراقب أجسامنا وهي تتداعى مترقبين الموت. ويتابع فرويد قائلاً، نحاول أن نبحث لأنفسنا عن السلوى بطرائق شتى، فتارة نجد سلوانا في الدين وتارة أخرى نجدها في العمل. ومهما بذلنا من هذه الجهود فإنها سوف تخيب

في النهاية. والناس عندما يكونوا غير سعداء يصبحون معادين للحضارة، ويستشهد فرويد من المقاومة الحديثة للعلم على أنها مثال على هذه المعاداة. لم يستطع التقدم في التقانة أن يجلب السعادة للناس، فقد تعامل البشر مع بعضهم البعض بقسوة مدمرة. إن أكبر إسهام قدمته الحضارة لتحقيق السعادة الإنسانية هو أن تحمي الناس من النوايا السيئة لجيرانهم.

تمنع الحضارة، كما يدعي فرويد، من أن يقتل البشر بعضهم البعض. وفي هذا التوقيت يكون فرويد قد قَبِلَ بدافع العدوان على أنه جزء من أجزاء النفس البشرية. العدوان، كما كتب فرويد، ليس مجرد دافع بل هو متعة يصعب على المرء الإقلاع عنها بعد أن استمتع بها في وقت من الأوقات. كما يمكن للعدوان أن يوحد الجماعة. إذ يصبح أفراد جماعة ما أوثق عروة مع وجود جماعة أخرى يمكن أن يكرهوها. أما الحب فهو محدود كما يراه فرويد، وعدو للحضارة. إذ تعمل الحضارة من ناحية أخرى على تقويض الحب عن طريق تقييده بالقوانين والمحرمات.

تفرض الحضارة قوانينها عن طريق نوع من «الأنا الأعلى الثقافي». ومع إنماء الطفل لأناه الأعلى عن طريق استدخاله لمعايير أبيه المسلكية في نفسه سوف يتبنى، بوضع عضواً في هذا الجو الثقافي، محرمات المجتمع. والجدير ذكره، هو أنه كما هو الحال بالنسبة للبشر الذين

يظهر عندهم العصاب عندما يكون هناك صراع بين مطالب الأنا الأعلى ومطالب الهو يمكن للثقافات أيضاً أن تصبح مريضة نفسياً. أشار فرويد إلى قدامى بني إسرائيل الذين عاقبوا أنفسهم على ارتكابهم الإثم وذلك عن طريق ابتداعهم لدين متنطع وصارم فيه أنبياء يلقون باللائمة على الذات وفيه قوانين متشددة.

هناك عَرَضٌ واحد يلخص علاقة الإنسان بالحضارة وهو: الشعور بالذنب. يساعد المجتمع على ضمان بقاء الإنسان على قيد الحياة إلا أن ذلك لا يتم إلا على حساب إجبار الأفراد على خيانة غرائزهم. وما الشعور بالذنب إلا تعبير عن القلق الناجم عن هذه المساومة.

تضمن الحضارة للبشر أن يكونوا غير مطمئنين على الدوام. في عام 1930 حاز فرويد على جائزة غوته Goethe Prize، وهي جائزة تقدمها مدينة فرانكفورت في ألمانيا لأولئك الذين يقدمون إسهامات عظيمة للثقافة. كان فرويد في غاية السعادة وقد حصل على مبلغ 10,000 مارك مرفقاً بالجائزة. وكان على فرويد أن يرسل ابنته أنّا نِيابة عنه لحضور الاحتفال إذ لم يتح له مرضه الشديد فعل ذلك. في عمر 74 سنة أضحى فرويد رجلاً عجوزاً ومريضاً وكان طبيبه المختص بجراحة الفم يجري له فحوصات دورية مخافة أن يعود مرض السرطان إليه وأقلع فرويد أخيراً عن تدخين سيجاره المفضل.

في نفس هذا العام توفيت والدة فرويد عن عمر 95

سنة. لم يهتز فرويد لهذا الحدث مثلما فعل بعد وفاة والده. وعوضاً عن ذلك أحس بالارتياح، الارتياح من أن أمه سوف لن تعاني من المرض والارتياح في أنه يستطيع أن يموت من غير أن يسبب لأمه العذاب. كتب فرويد إلى إرنست جونز بأنه شعر «بنمو في حريته الشخصية» «نظراً لأن مجرد التفكير بأن [أميليا] سوف تعلم عن موتي كان أمراً مقيتاً» وبالرغم من احتمال شعور فرويد بالحرية، فقد أصبح مقيداً أكثر من أي وقت مضى. وبإجراء عملية أخرى للفك في عام 1931 أضحى فرويد غير قادر على السفر ليعود إلى مسقط رأسه، حيث وضع له لوحة تذكارية باحتفال مهيب على بيته الذي ولد فيه.

في عام 1931، شل الركود الاقتصادي الكبير أوروبا. ومع ذلك استطاع فرويد من خلال دخله من الجوائز العلمية، ومن عائدات كتبه ومن ممارسته جزءاً من وقته في التحليل النفسي، أن يعيل كلاً من أسرته وأصهاره. جعلت الشدة الاقتصادية، في ألمانيا والنمسا، الناس العاديين متقبلين لأي حل مهما كان، وكان أدولف هتلر قد عُيِّن مستشاراً لألمانيا في عام 1933. وخلال ستة أشهر نظم حزبه النازي في أنحاء البلاد عملية إحراق الكتب التي ألفها اليهود والديمقراطيون واليساريون بما في ذلك كتب ألبرت آينشتاين وفرانز كافكا وتوماس مان وفرويد ذاته.

لم يحرك انزلاق ڤيينا البطيء نحو الديكتاتورية فرويد

من أجل أن يرحل عن البلد. أما أصدقاء فرويد في الخارج الذين كانوا أكثر إدراكاً بخطورة الوضع، فقد بدؤوا يرسلون له عروضاً باللجوء السياسي، لكن فرويد قاوم ذلك. إذ كان مرتاحاً في ڤيينا وعاش في نفس المنزل قرابة 40 عاماً ولديه أصدقاء وأقارب ممن كانوا يهتمون بأمره.

كان فرويد متعباً أيضاً، وفي عام 1937 نشر مقالاً بعنوان «التحليل المتناه وغير المتناه» Analysis Terminble and Interminable وهو إعادة نظر في علاج التحليل النفسي.

ضباط نازيون في ألمانيا يحيطون بمجموعة من اليهود ليصار إلى نقلهم إلى معسكر اعتقال. شغل بال أصدقاء فرويد وزملائه قيام النازية في ألمانيا وحثوا فرويد على الهروب.

توصل فرويد إلى الاعتقاد أن التحليل النفسي سلاح ضعيف إذا ما قورن بقوة الدوافع النفسية وبخاصة دافع الموت. إذ لم يكن التحليل النفسي عاجزاً فقط عن علاج بعض المرضى، بل كان على العديد من المرضى الذين خضعوا لتحليل نفسي ناجح أن يعودوا إلى حضور مزيد من الجلسات بعد انتكاستهم. كما لزم لبعض المرضى أن يواصلوا حضور جلسات التحليل النفسي طوال حياتهم. في نهاية المطاف رأى فرويد أن التحليل النفسي ليس في المقام الأول علاجاً بل هو طريقه في البحث وأصبح أكثر اهتماماً في اكتشاف الدوافع العميقة التي تقف وراء السلوك البشري وقوانين الحضارة أكثر من علاج كرب شخص واحد.

في الوقت الذي كان فيه فرويد يتساءل عن جدوى العلاج الذي اخترعه بنفسه، كانت النمسا تتهاوى. ورأى تلاميذ فرويد الأكثر دراية في السياسة أنه سيستولي النازيون عاجلاً أم آجلاً على النمسا.

وخلال سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين هرب هؤلاء التلاميذ تاركين فرويد في عزلة متزايدة. أصاب هذا التشتت فرويد بالرعب. إذ من الذي سيبقى في ڤيينا ليحمي التحليل النفسي إذا لم يبق هو؟ لقد أصبح حال التحليل النفسي الآن كحال اليهود في الشتات مبعثرين في أرجاء العالم بلا وطن حقيقي. تذكر هيرمان ننبيرغ Herman Nunberg، أحد المحللين الشباب الذين غادروا

النمسا، فرويد وهو يقول له «طالما أنه ليس هناك خطر حقيقي، فإن حكومة النمسا الحالية سوف تحمي اليهود ولن ترضخ للنازيين. أما بالنسبة له، كما قال، فهو رجل مسن ومريض، وثيينا هي وطنه وفيها أطباؤه الذين يعرفونه معرفة جيدة ويحتاجهم أيما حاجة».

في 11 آذار من عام 1938، سمح مستشار النمسا للقوات الألمانية بعبور الحدود وبضم النمسا. وعلى الفور من حدوث ذلك تقريباً باشرت عِصابات نمساوية بنهب المحلات والشقق اليهودية وضرب اليهود في الشوارع. سارع النازيون في التوجه والبحث عن منزل فرويد ودار نشر ڤيينا للتحليل النفسي، آخذين المال وما أمكنهم أن يجدوه من الأوراق. تذكر مارتن فرويد ردة فعل أمه، الحافظ الأمين على المنزل الأنيق، أثناء إحدى الإغارات على منزلها: «الـ... مشهد... لأم، وهي ساخطة جداً على رجل SS، الذي وهو في طريقه من خلال ممر توقف عند خزانة كبيرة وفتح أبوابها ثم بدأ يسحب بعنف أكوام البياضات المغسولة الجميلة التي رتبتها بعناية، ومن كل قلب ربة بيت حريصة، أحاطت كل حزمة منها بشريط ملون. من غير أن يبدو عليها أدنى علائم الخوف اقتربت أمي من الرجل وأخبرته بنبرة حانقة جداً تماماً بما كانت تفكر بسلوكه المستهجن في منزل سيدة وأمرته أن يتوقف حالاً. اندفع رجل الSS إلى الخلف من مكان الخزانة وبدا مذعوراً تماماً وانسحب مسرعاً كالخروف بينما أعادت أمي ترتيب البياضات».

غادر فرويد وأنّا ڤيينا أخيراً في 4 حزيران 1938. كانت الحكومة النازية الجديدة ضد فكرة السماح إلى فرويد بالمغادرة لكنها رضخت للضغط من قبل المجتمع الدولي.

كان فرويد كارهاً المغادرة، فقد كان مسناً وضعيفاً وخائفاً من ألا يكون مقبولاً في بلد أخرى. في عام 1938 لم يكن العالم متعاطفاً مع اللاجئين اليهود. طار إرنست جونز إلى ڤيينا لكي يقنع فرويد بالمغادرة وفي النهاية اقتنع بأنه من الممكن أن يهجر النمسا، طالما أن النمسا قد هجرته. وعلى الرغم من عدم رغبة الحكومة النازية الجديدة في أن تدع فرويد يغادر البلد، فقد كان

له أصدقاء من ذوي النفوذ القوي في المجتمع الدولي. بذل سفير الولايات المتحدة في فرنسا والقنصل الأمريكي العام في ڤيينا والأميرة ماري بونابرت Marie Bonaparte التي لها صلة قربى بمعظم الزعماء الملكيين في أوربا ـ وأصدقاء إرنست جونز في مكتب الخارجية البريطاني، قصارى جهودهم لنقل فرويد إلى إنكلترا. قبض على أنّا لكنها بقيت متنبهة لنفسها وأطلق سراحها. طالب النازيون بالمال لقاء سماحهم لفرويد بالمغادرة، فقامت ماري بونابرت بتسديد المال لهم. تم السماح إلى فرويد بمغادرة ڤيينا بتاريخ 4 حزيران 1938 من غير رجعة. ومع أنه تدبر أمر إنقاذ معظم أفراد عائلته الذين لا يزالون يعيشون في ڤيينا، فقد كان عليه أن يترك خلفه شقيقاته الأربع. تعرضت إحداهن للموت جوعاً في معسكر اعتقال ثيريسنستادت Theresienstadt أما الثلاثة الباقون فمن المحتمل أن يكونوا قد ماتوا في معسكر اعتقال أوشويتز Auschwitz.

وصل فرويد إلى لندن في 6 حزيران من عام 1938 واستقر بعد بضعة أشهر في منزل بالإيجار في ماريسفيلد غاردنز Maresfield Gardens، إحدى ضواحي لندن ـ وفي النهاية تم دفع فدية سرير وكتب ومجموعات فرويد التذكارية إلى النازيين ليصار إلى نقلهم إلى بريطانيا.

استطاعت المدبرة المنزلية التي كانت تعمل عند فرويد ومارثا أن ترتب التماثيل المحببة إلى فرويد على مكتبه

الجديد في نفس الطريقة تماماً التي كان يحتفظ بها في ڤيينا. وبالفعل لقد تم ترتيب كل المنزل وكأنه نسخة قريبة من حجرات منزل فرويد على شارع 19 بيرغاس وباشر فرويد تحليل بضع حالات مرضية بعد فترة وجيزة، لكنه استمر في حزنه وكآبته. وعندما ذكر له أحد الزائرين أن دراسته الجديدة مطابقة لدراسته القديمة في ڤيينا، رد عليه بضجر قائلاً «كل شيء هنا، وأنا الوحيد الذي لست هنا». كان كتاب فرويد الأخير (موسى والتوحيد) أكثر أعماله إثارة للجدل. إذ لم يكن كتاباً عن نظرية التحليل النفسي بالمعنى الدقيق. وأشار إليه فرويد ذاته على أنه «رواية تاريخية».

وبكتاب موسى والتوحيد عاد فرويد إلى موضوع اليهودية. فقد كان معجباً بموسى لسنوات طويلة كما كتب مقالاً عن تمثال مايكل أنجلو الرمز الإنجيلي العظيم. احتوى الكتاب على ثلاث مقالات ذات موضوع واحد: وهو أن موسى، الذي أخرج بني إسرائيل القدماء من العبودية في مصر، كان هو نفسه من طبقة النبلاء المصريين. اعتنق موسى عليه السلام الوحدانية، وهو الإيمان بأن لا إله إلا الله في الوقت الذي كان فيه معظم المصريين ينتمون إلى جماعات دينية وثنية. غيَّر موسى دين اليهود إلى التوحيد وخرج بهم من مصر إلى الأرض المقدسة. وهناك التقى العبرانيون بقبيلة تدعى أهل مدين الذين كانوا يعبدون إلاهاً اسمه يهوه وهو إله منتقم. بعد ذلك ثار اليهود على موسى وقتلوه، على حد زعم

فرويد. كانت الثورة على موسى بمثابة إعادة تمثيل لجريمة قتل الأب الأصلية القديمة. وبما أن اليهودية قد بدأت، كما يزعم فرويد، بالعودة إلى خبرة أولية مكبوتة، فإن من المحتمل أن تكون المسيحية أيضاً لباساً تنكرياً لفعلة أولية. وعلى الأغلب أن يكون عيسى [عليه السلام]، كما يزعم فرويد، قائد عصبة الأخوة الذين قتلوا أباهم منذ زمن طويل.

نشر فرويد هذا الكتاب وقد ساورته بعض الشكوك، فقد أثار قلقه الكيفية التي سوف يستقبل بها المجتمع اليهودي هذا العمل. كتب في رسالة إلى المؤرخ تشارلز سينغر Charles Singer. «لا داعي للتذكير، بأنني لا أحب أن أجرح مشاعر شعبي... ولكن ما الذي يمكن أن أفعله؟ فقد بذلت حياتي مدافعاً عندما كنت أعتقد أنه الحقيقة العلمية، حتى عندما كانت مريحة وغير سارة لأصحابي. لم أستطع أن ينتهي بي الأمر إلى التنصل منها».

وحدث ما توقعه فرويد، فقد تعرض للانتقاد على نطاق واسع بسبب كتابه موسى والتوحيد. وقال المعارضون أن كتاباته غير صحيحة تاريخياً واستنتاجاته جارحة. ومع ذلك راج بيع الكتاب وتمت ترجمته بسرعة إلى اللغة الإنكليزية. من حسن طالع فرويد أن تم ذلك بسرعة، فقد شارف فرويد على الموت بسبب معاودة مرض السرطان في خريف عام 1937، وأضحى غير قادر

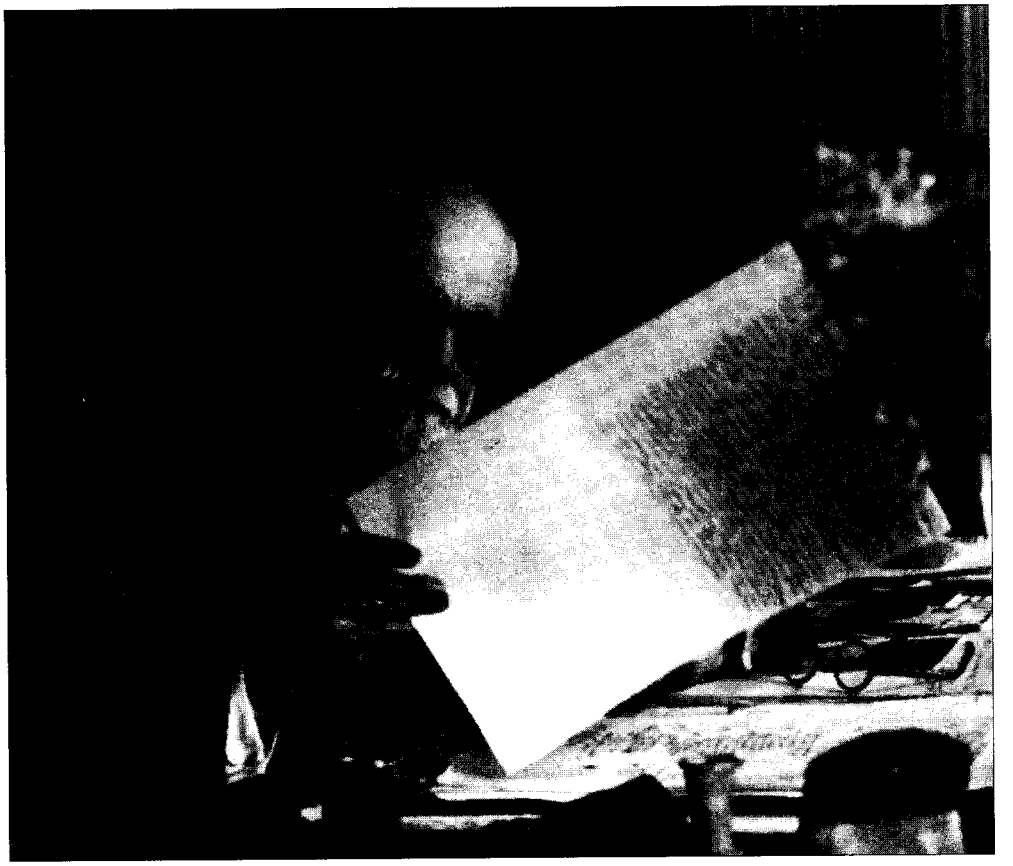

فرويد مستغرق في الدراسة في منزله بلندن في عام 1938، قبل موته بعام واحد.

على تحمل علاجات جراحية أخرى. وفي شهر شباط من عام 1939 أعلن أطباؤه الجدد في لندن أن مرض السرطان عنده غير قابل للعلاج أو للإجراء الجراحي.

في شهر تموز توقف فرويد عن رؤية المرضى لكنه استمر في المطالعة، وكان آخر كتاب قرأه هو رواية لبلزاك، وهو نفس المؤلف الذي منع أخته من قراءة كتبه من قبل سنوات عديدة.

بدأ النسيج الخليوي السرطاني بالتقرح وبإصدار رائحة

مقيتة. واعتباراً من شهر آب وصاعداً أصبح كلبه يرفض الاقتراب منه. ومع ذلك شرع الرجل المحتضر بإجراء تعديل آخر على نظريته تحت عنوان «الموجز في التحليل النفسي» لكنه تخلى عنه، جزئياً لأنه كان يكابد ألماً مستمراً. كما رفض تناول الدواء، لأنه أراد أن يبقي ذهنه متوقداً. في 21 أيلول من عام 1939 طلب فرويد من ماكس شور Max Schur طبيبه الشخصي أن يساعده قائلاً: «الآن أصبح الأمر لا شيء إلا عذاب ولم يعد له معنى». وبعد التشاور مع أنّا، حقن شور فرويد بجرعة كبيرة من المورفين.

وعلى مدى اليومين التاليين، حقنه بجرعتين إضافيتين. وفي 23 أيلول من عام 1939 مات الدكتور سيغموند فرويد، مؤسس التحليل النفسي. خلافاً للتقاليد اليهودية، تم إحراق جثته ووضع رماده في جرته الإغريقية المفضلة. أما مارثا بيرنيز فرويد المخلصة فقد أشعلت للمرة الأولى منذ زواجها قنديل السبت اليهودي يوم الجمعة ليلاً.

الخاتمة

نقف أمام إنسان قد ترك عندنا انطباعاً بأنه عظيم، أليس حري بنا أن تهتز أجسامنا بدلاً من أن تقشعر فقط عندما نعلم أنه اكتسب عظمته من خلال زلاته فقط؟

ـ لو أندرياس ـ سالومي،
مجلة فرويد (1964)

لم تكن أعمال فرويد مثالية إذ لم يتسامح مع المشككين وطرد بعضاً من أكثر تلامذته موهبة من حركة التحليل النفسي لأنهم لم يظهروا احتراماً كافياً لأفكاره. لا تزال موضوعات بحوثه والطرائق التي استخدمها في التوصل إلى استنتاجاته مثيرة للجدل حتى هذا اليوم. ومع ذلك تجد الكثير من نقاد الأدب يستشهدون بما جاء في كتاب تفسير الأحلام لدعم نظرياتهم، بينما عارض بعض

وكما يوحي هذا الرسم من عام 1970، تبقى حياة وأعمال فرويد موضوعاً مثيراً للجدل. هل أفكار فرويد هي ببساطة من نتاج مخيلته وظروفه أم أنها تقدم للعالم طريقة جديدة لاكتشاف العقل؟

علماء الأحياء فكرة فرويد عن العقل البشري على أنها محض دجل، ليست جديرة حتى بالدراسة. في عام 1995 تم تأجيل معرض عن فرويد أعلن عن موعد افتتاحه في مكتبة الكونغرس (مجلس النواب) الأمريكي وكان من أسباب هذا التأجيل هو عجز أمين المكتبة عن إيجاد طريقة يرضي بها كلاً من المؤيدين والمعارضين للمذهب الفرويدي.

هذه هي المفارقة: فقد أثار فرويد حوله عاطفتين متناقضتين: ولاء شديد وحقد مرير. فقد منح تحليله الدقيق للسلوك البشري وعلاقته بالصراعات النفسية العميقة، الباحثون في علم أصول الأقوام وعلم التاريخ ونظرية الأدب والعشرات من التخصصات الأخرى، أدوات قيمة لتحليل الحياة والفن عند البشر. وعلى وجه التحديد، أعطى فرويد انتباهاً خاصاً إلى اللغة كما منحت نظرياته عن الأحلام والزلات (التي تم الاعتياد على الإشارة إليها بزلات فرويد) طلاب الأدب طريقة جديدة غنية في فهم الكلمة المكتوبة وفي نفس الوقت أثارت أعمال فرويد حنق كثير من العلماء والباحثون النفسيون والكتّاب المدافعون عن حقوق المرأة. لقد كانت طرائقه في البحث مختلفة جداً عن معظم الأعمال العلمية الأخرى، وبدا أن معظم السلوك يتوقف على خبرات الطفولة المبكرة، وكأنه طريقة تساعد الكبار على تجنب تحمل المسؤولية تجاه أفعالهم. شكلت بعض نظريات فرويد عن سيكولوجية المرأة حيناً بحق المرأة، وشجعت

المعالجين على النظر إلى المرأة على أنها ضعيفة وغير ناضجة. والأمر الأكثر ضرراً هو شعور بعض الناس أنه لا يمكن رصد مكونات الشخصية من مثل الهو أو الأنا إلا من خلال تقانات فرويد. إذ ليس هناك وسيلة تصور الدماغ فتكشف عن وجود الأنا الأعلى فيه. والوسيلة الوحيدة في الكشف عنه هي الاستدلال عن وجوب وجود الأنا الأعلى من آثاره. يبدو علم النفس الفرويدي لكثيرٍ من خصوم المذهب الفرويدي أنه يعتمد على الاعتقاد به أكثر من اعتماده على الدليل العلمي.

كتب ماكس غراف، العضو في جمعية الأربعاء النفسية ووالد «هانز الصغير» في مقالة تم نشرها في مجلة ربعية التحليل النفسي The Psychoanalytic Quarterly في عام 1942:

«لقد كان هناك جو ديني في تلك الغرفة. كان فرويد ذاته هو النبي الجديد لهذا الدين الذي جعل... الطرائق السائدة في البحث النفسي تبدو خرافية. كان تلامذة فرويد ـ المؤمنون به ـ حواريوه. [نسبة إلى الأتباع الأوائل لعيسى المسيح]...

بعد الفترة الحالمة الأولى والاعتقاد الذي لا يشوبه شك عند المجموعة الأولى من الحواريين، جاء الوقت الذي تأسست فيه الكنيسة. بدأ فرويد بتنظيم كنيسته بطاقة كبيرة.

كان جدياً وصارماً في الشروط التي وضعها لتلامذته، لم يسمح بأي انحراف عن تعاليمه الأصلية... وإذا اعتبرناه مؤسساً لمعتقد يمكن عندئذ أن نعتبره مثل موسى عندما رجع إلى قومه غضبان أسفاً.

ليس هناك حلاً سهلاً للجدل القائم بين أنصار فرويد ومعارضيه. سيبقى فرويد مثيراً للجدل لأنه لا يزال واحداً من أكثر المفكرين تأثيراً في القرن العشرين. وحتى لو عاش فرويد إلى يومنا فلن يستطيع أن يباشر بحثه. إذ اختفت الهستيريا في القرن العشرين وأخذ عدد النساء والرجال اللذين أظهروا أعراضاً هستيرية بعد عام 1900 بالتضاؤل، ولم تعد الجمعية الأمريكية للطب النفسي تُدون الهستيريا ضمن فئات الاضطرابات النفسية ـ فالأعراض الجسدية التي كان يراها فرويد أعراضاً هستيرية أصبحت تدعى الآن اضطرابات التحوُّل ـ حيث تتحول المشكلات النفسية إلى أعراض جسدية ـ ولا يعتقد أن لها صلة بالرضى الطفولي. إن المرض الذي فجر عند فرويد عملية البحث في العقل لم يعد على الصعيد الرسمي موجوداً. لم يكن علاج الهستيريا أو السلوك العصابي إسهام فرويد الأكبر في العلم، لكنه قَدَّم إلى العالم طريقة جديدة في اكتشاف العقل. ليس فرويد بعالم بالمعنى الحديث للعلم، لكنه جعل الأمر ممكناً لآلاف الباحثين والمعالجين والفنانين والكتّاب لكي يكتشفوا الدوافع اللاشعورية وراء السلوك، والمشاعر التي لا نعترف بها والبنية التحتية المظلمة لواجهة التفكير العقلاني.

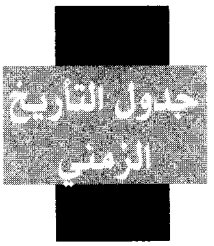

6 أيار 1856

ولد سيغسموند شلومو فرويد في فريبرغ، موراڤيا.

1860

انتقلت عائلة فرويد إلى ڤيينا.

1873

يدخل فرويد جامعة ڤيينا.

1881

يحصل فرويد على درجة الدكتور في الطب، ويعمل بتفرغ كامل في مختبر إرنست بروك.

1882

يبدأ فرويد العمل في مشفى ڤيينا العام ويعقد خطوبته على مارثا بيرنيز.

1884

ينشر فرويد «عن الكوكا».

1885

يسافر إلى عيادة تشاركو في باريس.

1886

يحاضر عن الهستيريا في جمعية أطباء ڤيينا ويقيم عيادته الخاصة.

1887

ولدت ماتيلدا فرويد، ويتقابل فرويد مع ويلهالم فلييس.

1889

ولد مارتن فرويد.

1891

ولد أوليڤر فرويد.

1892

ولد إرنست فرويد.

1895

يشاهد فرويد «حلم حقنة إرما»؛ ينشر دراسات عن الهستيريا.

1896

ولدت أنَّا فرويد؛ يموت والد فرويد، يحاضر فرويد عن نظرية الإغواء في ڤيينا.

1897

يباشر فرويد بالتحليل النفسي الذاتي، يرفض نظرية الإغواء.

1902

يتوقف فرويد عن المراسلة مع فلييس؛ تبدأ جمعية الأربعاء النفسية.

1904

يبدأ فرويد بمراسلة كارل يونغ.

1905

ينشر «ثلاث مقالات عن النظرية الجنسية».

1909

يزور الولايات المتحدة.

1914

يكتب «عن النرجسية»؛ تبدأ الحرب العالمية الأولى.

1918

يحضر ممثلون عن ثلاث حكومات مؤتمر التحليل النفسي الأولى بعد الحرب.

1920

وفاة سوني فرويد.

1922

تنضم أنَّا فرويد إلى جمعية ڤيينا للتحليل النفسي.

1923

يتم تشخيص مرض السرطان في فك فرويد.

1926

ينشر «مسألة التحليل العادي».

1929

يكتب «الحضارة ومنغصاتها».

1933

يحرق النازيون كتب فرويد في ألمانيا.

1938

يهرب فرويد من ڤيينا؛ ينشر «موسى والتوحيد».

23 أيلول، 1939

وفاة فرويد في إنكلترا.